١) التنظير ممكن في كل ميدان

مراجعة في كتاب المدرسة الأيكوية في الكتابة

للدكتور علي مهدي زيتون

الأستاذ الدكتور فؤاد خليل

أستاذ متقاعد في معهد العلوم الاجتماعيّة، الجامعة اللبنانية .

١ ـ كان له ما أراد

لست أزعم أنني ذو خبرة معرفية في النقد الروائي. فذاك شأن لم يحصل لي أنّ اوليته أهتماماً في مسيرتي البحثية في الفكر السوسيولوجي، وقد يُحتسب هذا ضرباً من التقصير، لا تبرره حتى كثرة انشغالاتي في العمل البحثي وفي التدريس الجامعي. ذلك أنّ بين الرواية والسوسيولوجيا صلة رحم عميقة يستولدها الكشف عن الحقائق المجتمعية، وإن اختلف كشفهما في أسلوب الكتابة والأدوات التقنية ومنهج المقاربة. وبالرغم ممّا لا أزعمه، طلب إليّ الأخ والصديق د. علي زيتون، أنّ أقدّم مراجعة حول كتابه الجديد: "المدرسة الايكوية في الكتابة ـ ما لا يمكن تنظيره ينبغي سرده. فكان لا بدّ من أنّ نتباسط في الطلب بعض الشيء، لخشيتي من أنّ تتفارق مداخلتي عن الاختصاص في النقد الروائي. لكن حيث أعلمني أنّ متن الكتاب يتمحور أعمه الأغلب حول فكرية ايكو ما بعد الحداثية، وتحليل هذه الفكرية من منطلق الفكرية الحداثية، كان له ما أراد... ذلك أنّ السوسيولوجيا تأسّست على سردية حداثية كبرى، وما زالت حتى اليوم تحضر بكيفيات مختلفة في حقل العلم؛ وأنّ ما يُعرف بالسوسيولوجيا المعاصرة تحاول أنّ تنقض تلك السردية، وتنزع ما بعد حداثيّ لترى بالتالي أنّ موضوعها يتمثّل في الذوات الفاعلة وقصصها التفاعلية اليومية، أو بمعنى آخر، يتمثّل فيما يسميه ليوتار السرديات الصغرى...

على هذا سوف تنطبع مداخلتي التي تقتصر على نموذجيْن نظريّن، بتحليل حفري لفكرية ايكو ما بعد الحداثية؛ إذ يتوخى أن يغني التحليل النقدي للمؤلف من مرتكز الرؤية نفسها التي يأخذ بها. هنا لا بدّ لي من أنّ أؤكد أنّ اغناء التحليل يرتسم على مستوى تصعيد الجانب المعرفي الحداثي، من أجل أنّ اقارب منطق التجادل بين المستويْن المعرفي والايديولوجي في الفكر ما بعد الحداثي..

٢ ـ الإطار المرجعي

ولطالما كان الفكر الحداثي هو الإطار المرجعي للنظر في فكرية إيكو، يغدو من الضروري منهجياً أنّ نقف ولو باقتضاب على متن هذا الفكر، لكي نبلور مساهمة إغنائية تتسق مع تحليلات المؤلف النقدية، وتتوسّع أحياناً فيما ينبغي توسعته...

الحداثة مسار زمني جديد قطع مع زمن الوسيط، وانبنى في كلية معرفية من قوامها: العقل والعلم والتقدم. فالعقل لا الغيب هو مصدر المعرفة. وفي مكنته أنّ يتوصل إلى حقائق عامة ويقينية، فيما خص موضوعات الكون والإنسان والمجتمع، إذ يتعقّل موضوعه، ليغدو معقولاً أي مفسراً بفعاليته بالذات. وهي فعالية تميّز بين الصواب والخطأ، والحق والباطل والمزيّف والحقيقي. إنه والحال هذه، أداة للإنتاج النظري في الكل وليس في الجزء، في العام وليس في الخاص أو المفرد.

والعلم بعد الوسيط، كشف منظم لقوانين الطبيعة والمجتمع. حيث إنّ القانون العلمي هو تجريد المحسوس أو مفْهمته. والمفهوم هو تملك العام الملازم للمحسوس وفي إثر هذا التملك، تكون المعرفة العلمية عامة وعالمية، حيث تتبدى في الطبيعة والمجتمع. ففي الأول، تتجدد مع تطور العلم. وفي الثاني، يعاد انتاجها في الخاص المجتمعي بما هو المجال الملموس للتجادل المستمر بين الكوني والمحلي.. والتقدم ينتجه الوصفي ويلزم عنه بالضرورة، أيّ أنه محايث للتاريخ والمجتمع. فالتاريخ مجرى تعاقبي من الأدنى إلى الأعلى، أو من البسيط إلى المركب، أو من المشاعي إلى الشيوعي. وهو في مجراه الأوّلي شكّل قاطرة للثقافة

بحيث عَبَر بها من الطبيعة إلى نصابه. ثم تطورت في رحابه بكيفيات وأشكال متنوعة. لكن المجرى التاريخي ليس متعالياً أو مفارقاً للواقع؛ بل أنه ينتظم مجتمعياً، لأن هناك تشاركاً في كينونه كل من التاريخ والمجتمع. فمجرى التعاقب أو التقدم في التاريخ لا يتحقق إلا في المجتمع، والتقدم المجتمعي يحمله مجرى تاريخي موضوعي وينزع به نحو غاية إنسانية، تتمثّل على ما يرى د. زيتون إما في تحقيق العقل المطلق في مثال (هيغل)، وإما في تحقيق الحرية الإنسانية التي تنتج عن وعي الضرورة في مثال آخر (ماركس).

أما موضوعية التاريخ الاجتماعي، فليست قدَرَيه تقهر الذوات الفاعلة أو النحن المجتمعية وتسلبها القدرة على الفعل؛ بل هي نتاج شروط التفاعل وسياقاته التي تندرج فيه هذه النحن، الأمر الذي يؤول إلى أنّ الفرد يفعل ويبدع من داخل سياقات التفاعل بالذات. هكذا، يتاح لي أنّ استخلص حداثياً، أن الحقيقة هي نتاج الكشف المفهومي عن قوانين الواقع والعالم (الطبيعة)، بمعنى أن الحقيقة العامة لا تكون وجهة نظر، لأن الواقع ليس مبعثراً، وأنّ العالم ليس فوضوياً، بل على العكس. فكل منهما يتشكل من بنية تتوافر على آليات اشتغال أو قوانين خاصة بها. والبنية هنا، هي التي تؤطر النص الحداثي سواء كان فكرياً أم أدبياً بحيث يحضر فيها منتج النص فاعلاً وخلافاً، إنما من داخل سياقات مخصوصة؛ إذ إنّ السياق هو مصدر تأسيسي للنص يقدّم لمنتجه كل إمكانات الخلق والإبداع في نتاجه وتلك هي حال الأعم الأغلب من النصوص الفنية والحية في التاريخ..

٣ ـ نقدٌ إلى نقد

- بنى د. علي زيتون مقدمة تختلف عمّا هو متداول تقليدياً في مقدمات النقد الروائي. فقد ضمّن بناءها كيفية تعرفه إلى الروائي الايطالي امبرتو إيكو، حين طلب إليه تقديم بحث عن رواية الأخيرة اسم الوردة. وقد جذبته هذه الرواية إلى قراءة سائر الروايات الايكوية. وفي ضوء مقولة إيكو: ما لا يمكن تنظيره ينبغي سرده؟ ابتدأ د. زيتون بالسرد، ثم عاد إلى التنظير، ومن ثم قدّمه في كتابه على الأول. وهو في هذا وذاك، كان يتفحص نقدياً وبعين حداثية فكرية إيكو ما بعد الحداثية؛ الأمر الذي جعله أولاً يحاور مقابلات إيكو حول ثلاثة عناوين هي: الحقيقة والتاريخ والقضايا الكبرى أو السرديات الحداثية الكبرى...

أ ـ نموذج أول:

وقفة مع هذه العناوين المفهومية. حول المفهوم الأول (الحقيقة) يقول إيكو (ص ١٨): "لم يكن هناك سوى أفضليات لا حقائق". يستدعي هذا القول، بعد الحفر على سياقه، أن ليس هناك سوى الحقائق النسبية (الأفضليات)، التي تحيل إلى الأحداث المفردة والمبعثرة، وإن الحقيقة العامة، لا تعدو عن كونها جمعاً لما هو نسبي. ذلك أنّ إيكو ألما بعد حداثي ينفي موضوعية الواقع أو العالم من حيث أن موضوعية الأخير تشكّل مجال الكشف المعرفي عن القوانين القارة في بنيته، أيّ عن حقائقه العامة. ولعل قول إيكو (ص ١٩): "أصبحت اعتقد أكثر فأكثر بإمكانيّة أن العالم غير موجود وبأنه ليس سوى نتاج لغوي"؛ يؤكد ما ذهبت إليه من نفي لموضوعية الواقع، بحيث لا يجد قوامه الوجودي إلا باللغة؛ وكأنما اللغة في نظره، ذات قوام يتحدد بذاته حتى تكون خالقة أو متعالية على الواقع، وليست مخلوقة، أو من نتاج سياقاته العامة في الفكر والثقافة والايديولوجيا؛ أي بعبارة أخرى، مخلوقة من رحم التاريخ الاجتماعي....

وفيما خص المفهوم الثاني (التاريخ)، يقول إيكو (ص ٢٠): "كانت هذه الاشاعات السبب في انبثاق التاريخ الكبير". هنا، اعتقد أن مصطلح الإشاعات يحيل عند إيكو إلى النظام المنهجي في التفكير الحداثي. وهو ما حددّه د. علي بالجدلية المثالية الهيغلية، وبالجدلية المادية الماركسية. والمعروف أن هذين المنهجيْن أتاحا لصاحبيهما أن يقاربا التاريخ الاجتماعي رغم اختلافهما من منظور كلي وشمولي. فكانت مقاربة كل منهما تمثّل سردية تاريخية كبرى ترسم مسار التقدم البشري المتعاقب من مرحلة إلى أخرى نحو تحقيق العقل المطلق أو تحقيق الحرية الإنسانية. وحيث يرى إيكو أنّ انبثاق التاريخ الكبير الذي يعني به السردية التاريخية

الكبرى، يعود إلى الإشاعة، لا يبقى أمامه من مخرج سوى أن يرى بأن التاريخ مسرح للوهم (ص ٢٠). ومسرح الوهم في منهج التفكير ما بعد الحداثي، يحيل إلى رفض التاريخ العام للواقع بما هو كلية مجتمعية، كما إلى رفض مساره الغائي. ذلك أن الواقع في النظر ما بعد الحداثي هو مجموع من الأحداث المتجاورة على شكل جزيري لا يربط بينها عام أو كل. وبذلك، يكون التاريخ، تاريخ حدث جزيري لا ينزع كما أشرت آنفاً إلى أي هدف أو غاية إنسانية كبرى.. وفيما يرتبط بالمفهوم الثالث (القضايا الكبرى)، يرى إيكو (ص ٢١)، أن المجتمع تخلى عن الجدل حول المبادئ الكبرى وانتقل من مرحلة الحداثة والاهتمام بالقضايا الكبرى إلى مرحلة ما بعد الحداثة والاهتمام بالجزئيات والتفاصيل.

يحفزني هذا القول أن اتناول بإيجاز نظرة الحداثة إلى المجتمع. فالمجتمع في هذه النظرة إما هو نظام أو بنية أو نسق... وهو بذلك، يشكّل كُلاً يختلف من حيث طبيعته عن طبيعة العناصر (الأفراد) الداخلة في تكوينه. لكن الكل هنا ليس متعالياً على الأفراد، بمعنى انه ليس متخارجاً عنهم، إذ إنّ الفرد يحضر في الكل والكل يحضر في الفرد. وهذا ما تبرهن عليه العلاقة بين الطرفيْن وفق معادلة الاستدخال والاستخراج. فالاستدخال يعني حضور المجتمع في الذات الفردية، والاستخراج يعني حضور الذات الفردية في المجتمع. وعلى هذا الأساس رأت السوسيولوجيا الحداثية، أن الفرد هو حامل الكل المجتمعي، وان فعله أو إبداعه يتم من داخل هذا الكل.

ولطالما كان الأمر كذلك، يغدو الكل متسقاً مع ذاته لجهة الاهتمام بالقضايا الكبرى نحو: الوطنية والقومية والصراع الطبقي والعدالة والمساواة والخير والحق والجمال... ويغدو الفرد حاملاً لتلك القضايا. ذلك أن الاثنيْن يعبران عن سردية حداثية كبرى... أما المجتمع في النظر ما بعد الحداثي، فقد تفكك بفعل العولمة، ولم يعد يشكل نظاماً أو نسقاً أو كلاً، بل أصبح عبارة عن جمع من الأفراد لا رابط مجتمعياً بينهم، حيث لكل منهم قصته الصغرى أو اهتمامه بالجزئي أو بالتفصيل في المعيش اليومي حتى ولو اتصف بالهامشية وأحياناً بالتفاهة.

هنا يبدو المجتمع في ضوء هذا النظر كأنه محادثة حول قصص أو سرديات صغرى يتبادل الأفراد سردها فيما بينهم، سواء في العالم الواقعي أم الافتراضي... لكن حتى من جذّر مقولة التفكك، وتحدث تحليلياً عن فوات المجتمع ونهايته أو نهاية تصوّر عنه (آلان تورين)، لم يستطع في نهاية تحليله أن ينفي الرابط المجتمعي بين الأفراد، إذ رأى أنّ الفرد لا يمكن له أن يحلّق فوق المجتمع، أو أن ينفصل جذرياً عنه. وهذا يعني أن ما بعد الحداثة التي تروّج للفردانية الجذرية، لم تمتلك معرفة قطعية، تؤهلها لنفي العلاقة التي أرستها المعادلة الحداثية بين المجتمع والفرد.

وهكذا، يتبدى بوضوح أن النقد الحداثي لأيّ نص ما بعد حداثي، أيّا كان نوعه أو طبيعته، يحمل ضرورته المعرفية بجدارة، لأنّ البناء على النظام، أو التشييد على الكل، هو وحده الذي يواجه الفوضى والتشظي والتفكيك..

ب ـ نموذج ثان: الأثر المفتوح

في كتابه "الأثر المفتوح" يورد إيكو (ص ٢٦)، "أن الإنسان الوسيط يستدعي عالماً محدداً حيث يستطيع العيش والتوجه حسب علامات مؤكدة. أما الإنسان الحديث، فيرى ضرورة تأسيس مسكن جديد من دون أن يعرف قوانينه الغامضة، فيبقى مسكوناً على الدوام بذكرى الطفولة الضائعة". ينطوي هذا النص على مفاهيم الزمن (الوسيط والحديث)، والثقافة (العلامات)، والعالم المجتمعي (المسكن)، واللانظام أو الفوضى (القوانين الغامضة).

إنّ الزمن يظهر عند إيكو في ضوء نصه هذا، بأنه ليس خطاً تصاعدياً، ولا مساراً لولبياً ذا نزوع تقدمي، إنما هو حَلَقي وتراجعي في آن. وما يؤكد ذلك، هو أن الإنسان الحديث مسكون على الدوام بذكرى الطفولة، أي أن عودة الزمن الحاضر أو الحديث إلى الزمن الماضي تعني في وجه آخر أن الحاضر يتقوم بالماضي. في حين أن الحاضر الحداثي، يكثّف في لحظته

الجارية لحظتي الماضي والمستقبل. فهو الذي يستدعي الماضي إليه ويفسّره. ذلك أن الأعلى هو الذي يفسّر الأدنى. وهو أيضاً الذي ينزع نحو التقدم على نحو متواصل، لِما تحمله لحظته من إمكانات لبناء الآتي...

وما بين حاضر يعود أو يتراجع، وحاضر يستدعي ويفسّر وينزع، يظهر الماضي عند إيكو متعالياً على الحاضر. وهذا التعالي، أراه قد وجد تعبيره في دعوة ما بعد الحداثة بصفتها ايديولوجيا العولمة المعاصرة، إلى احياء ثقافة الأمس "الأزلي"، ما قبل الدولتية تحت مسمى التنوع الثقافي.. هذا الأمس الأزلي هو ما قصده إيكو في ظني، في حديثه عن العلامات المؤكدة، أي عن ثقافة العُرف والتقليد والعقل الايماني. وصفة المؤكد لتلك العلامات تحيل إلى الثبات والاستقرار، كما إلى الأمان والطمأنينة لدى الإنسان الوسيط في عالمه المجتمعي. ذلك أن العُرف والتقليد بما هما نظام لهذا العالم، يتكرران داخل حلقة تتصف بالثبات والديمومة. وأن العقل الايماني يتسم بالوثوق الغيبي المعرفي، أو الانحباس في دائرة النص الماضوي. وفي المقابل، يرى إيكو، أن الإنسان الحديث يعيش في مسكن جديد، أي في عالم مجتمعي لا يعرف قوانينه الغامضة. وهذا يدل على أن العالم الجديد ينحكم إلى التغير المستمر حيث يعجز العقل عن معرفة قوانينه بسبب غموضها..

هنا يتضح جلياً، أن عجز العقل عن الكشف المعرفي، يتأتى من نظرة إيكو ما بعد الحداثية. وهي النظرة التي تقوض العقل وتهدمه كأداة للإنتاج النظري، هي في النظر الحداثي لا تعجز عن كشف القوانين الكامنة غير الغامضة أو المجهولة، في بنية العالم المجتمعي.. وحيث يتقوض العقل أو ينهدم، يعيش العالم المجتمعي في حال اللانظام أو الفوضى. وإزاء هذه الحال يتبعثر العالم ويتشظى، ويغدو كل حدث فيه قائماً بذاته. فيدخل الإنسان في دائرة حَدَثية ضيقة، ولا يعود أمامه سوى أن يسرد من داخل دائرته بالذات. وبعد أن يستغرقه السرد الحدثي، لا بد من أن تتسلّل إليه وضعية القلق الوجودي التي لاحظها د. علي، أو العصاب الاستفزازي. وهي وضعية قاد إليها نص إيكو، والتي لا يفيدها كثيراً تذكر الطفولة الضائعة على تخوم الأمس "الأزلي".

إنّ العقل الحداثي الذي يستكشف معرفياً النظام في العالم، أو قوانينه العامة، أو بنيته الكلية؛ هو وحده الذي يمسك بيد الإنسان الحديث ويقدّم له سردية كبرى تخرجه من سرده الحدثي ومن تلك التخوم على حد سواء..

أما حين يتبعثر العالم ويتشظى، وحين يتقوّض العقل، فلا يعود مستبعداً في ضوء التحليل الحَفْري، أن يدعو الفكر ما بعد الحداثي إلى تشظية الله بما هو خالق أو مطلق أو عقل كلي أو نظام كوني؛ أو أقله إلى نسيانه على ما كان يقول ميشال فوكو في لحظة متعته الخاصة..

لكن إذا ما نظرتُ إلى مشهد آخر؛ أجد طفلاً فلسطينياً يحمل حجراً ويضرب به الجندي الصهيوني. فالمشهد هذا يعني أن الحجر ليس سوى سردية كبرى (القضية الوطنية)، ينتجها عقل حداثي وينقض بها فكر نيتشه وإيكو وفوكو، بعد أن أعادت قبضة الطفل إحياء الله بأبهى صوره...

إذن، التنظير ممكن في كل ميدان...

أخيراً، بعد قراءة هذين النموذجيْن وتصفح سائر أجزاء الكتاب، يحدوني صدق القول: بأنّ د. علي زيتون هو ناقد روائي مبدع وخلاق سواء في سرد التنظير أو في تنظير السرد...

إنه الشاهد الأمين على عالية النهر...

٢٠١٨-١١-٨